

كتابة الأشعار على الجدران بين التزيين والتوثيق والإبداع الأدبي

أ. د. محمد رضوان الداية(*)

تميّزت الحضارة العربية الإسلامية بخصائص طبعتها بطابع خاص، وقد رسخت هذه الخصائص، وتطورت سريعاً منذ القرن الهجري الأول، ومنذ انتبه الخلفاء الأمويون إلى ضرورة الاستقلال بطراز عربي خاص، وبنقده يميّز بنقوشه والكلام المكتوب عليه. وأسهمت الحياة الإسلامية في رسم القواعد العامة التي تنظم جوانب الفن الإسلامي: من الطراز والرسم والنقش والزخرفة والعمارة. وكان لاستبحار الحضارة في الدولة العربية الإسلامية في القرن الثالث في المشرق والأندلس أثرٌ في استكمال عناصر الفن الإسلامي.

وحين أعرض الفنانون في الدولة العربية الإسلامية عن الاحتفال بتصوير البشر ونقش تماثيل خاصة بهم، وتورّعوا عن استغلال صورة المرأة في جسدها كالذي صنعه اليونان والرومان وغيرهم التفتوا إلى الطبيعة بمعطياتها المختلفة واستفادوا من الهندسة وفنونها والرسم وتفصيلاته، وكان الخطُّ واحداً من إبداعاتهم حين شكلوا الحرف العربي تشكيلاتٍ

(*) أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة دمشق سابقاً.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٠/٦/٢٠٢٠م.

شئى، وأدخلوا التنوع في الكتابة في جملة إبداعاتهم الفنية.

(١)

وكان لتطور الخطّ العربي، ولإبداعات النُسخ والخطاطين، وتنوع أساليب الكتابة والخط والنقش، والتزيين أثرٌ في دخول (الخط العربي) جزءاً أساسياً من عناصر الفن العربي الإسلامي.

واحتاج الفنانون إلى الخطّ العربيّ بأشكاله وأنواعه، وجمالياته في نسخ الكتب، وتنميق خطوطهم، وفي الكتابة الفنية على أشياء أخرى غير الورق، مثل الخشب والحجر والنسيج والمعادن والجلود وغير ذلك ممّا يمكن الكتابة عليه، أو تقتضي أحوال الكتابة المختلفة استعماله والاستفادة منه.

ومع نهضة العمران في الدور والقصور والمصانع والقناطر والقيساريّات والمساجد، والمرافق المختلفة مثل القاعات والحدائق وما شابه ذلك صار للخط أكثر من مهمة.

- فقد صار وسيلةً للتنميق والتزيين على شكلٍ يتلاءم والمجال المطلوب الكتابة فيه؛

- وصار وسيلةً للتأريخ والتوثيق.

والخطّ العربيّ بأنواعه المتعددة هو أرقى خطوط العالم وأجملها على وجه البسيطة، فإنّ له من حُسن شكله وجمال هندسته، وبديع نسقه، وجاذبية صورته ما جعله محبوباً «محترماً» لدى الأجناب الغربيين، فضلاً عن مكانته بين المسلمين الذين هم ما يزالون يخدمونه، ويتفننون فيه، وبيتكرون له صوراً وأشكالاً بديعة^(١).

واسترسل الشيخ محمد طاهر الكردي في بيان مزايا الخط العربي

(١) يُنظر تاريخ الخط العربي وآدابه - محمد طاهر الكردي المكي الخطاط: ١٦٠.

ورَدَّها إلى ثمانية أمور، أطال التفصيل فيها، منها أنه يتشكّل بأي شكل هندسي، ويتمشى على أية صورة بحيث لا تختلف ماهيته، ولا يطرأ على جوهره تغيير أو تبديل. وسجّل أنه ظهر للخط العربي منذ صدر الإسلام أكثر من خمسين شكلاً^(٢).

والخطّ العربيّ شكلاً هندسيّ، والأشكال الهندسيّة الزخرفيّة هي طوع يد الماهر والنابع والمبدع الفنّان يتصرّف فيها كما يشاء.

وقد أدخل الشعراء في مدائحهم الإشادة بالعمائر والمباني التي ينشئها الخلفاء والحكام والوزراء ومن جاراتهم في ذلك، واستحسن أصحاب تلك الدّور والقصور والمجالس تلك الأشعار، وكتبوا من تلك الأشعار ونقشوا في مواضع مختلفة من البناء؛ وفي خبر رواه الوشاء^(٣) قال: أخبرني أبو جعفر القارئ قال: أخبرني بعض شيوخنا أنه قرأ في صدر مجلسٍ لأمير المؤمنين المأمون:

صِلْ مَنْ هَوَيْتَ ودَعْ مقالة حاسدٍ ليس الحسودُ على الهوى بمُساعدٍ
وحدثت نقلة ذات أهمية في الفنّ الإسلامي حين صار التزيين والتنسيق من جهة، والتوثيق والتأريخ من جهة أخرى مرتبطين بالشعر بعد أن كان موقوفاً على الشرّ التّسجيلي، ذلك بأن اتساع حركة العمران في الأقطار العربيّة الإسلاميّة، ورهافة الذّوق الفني والأدبي، ودخول الشعراء ساحة المشاركة في هذا التطوّر الفنيّ الجمالي: كل أولئك أدّى إلى الاستفادة من الشعر، ومن إبداع الشعراء.

ونقرأ أيضاً لاهتمام الأمم بالبنيان والعمران في كتاب المحاسن والأضداد^(٤)، فقد «كانت العجم تقيّد (تسجّل) مآثرها بالبنيان والمدن

(٢) المرجع السابق: ١٦١. هذا العدد المذكور مؤرخ بسنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.

(٣) الموشى: ٢٧٠.

(٤) المحاسن والأضداد (الخانجي): ٣.

والحصون مثل بناء أردشير وبناء إصطخر وبناء المدائن والسدير.. ثم إنَّ العرب شاركت العجم في البنيان، وتفرّدت بالكتب والأخبار، والشعر والآثار، فلها من البنيان: غمدان، وكعبة نجران، وقصر مأرب، وقصر مارد، وقصر شعوب، والأبلى الفرد، وغير ذلك من البنيان، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على مرّ الأيام... وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ونقشاً في الحجارة، وخلقاً مركبةً في البنيان؛ فربما كان الكتاب هو الناتج، وربما كان هو المحفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمرٍ جسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو موعظة يُرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب.. يعمدون إلى المواضع المشهورة والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدُّروس، وأجدر أن يراه من مرّ به ولا يُنسى على وجه الدهور».

وقد أوردت هذا النَّصّ، لأنه يوضح ما نحن بسببه من التوثيق (والتخليد) والتزيين؛ وتسجيل النصوص المناسبة من الكلام في المواضع الملائمة من الدُّور والقصور والقباب والقناطر وسائر العمائر ومخلدات المباني.

ومن أخبار الخلفاء العباسيين ما ذكره ياقوت^(٥) من أن المعتصم والواثق والمتوكل (وهم خلفاء عباسيون جاؤوا ولاءً بعد المأمون) كانوا إذا بنى أحدهم قصرًا، أو غيره من المباني أمر الشعراء أن يعملوا فيه شعراً، من ذلك قول علي بن الجهم في قصر الجعفريّ الذي للمتوكل:

وما زلتُ أسمعُ أن الملو ... كَ تبني على قَدْرِ أقدارها
وأعلمُ أن عقول الرجا ... لِ يقضى عليها بآثارها

(٥) معجم البلدان: (سامراء) ٣/ ١٧٥.

فلما رأينا بناء الإما ... م رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها!
فقصر الجعفري - يقول الشاعر - يصور عظمة الخليفة الكبير، وهو
مبنى يزيد في فخامته على ما صنع الفرس والروم معاً.

وهذا الخبر الذي أورده ياقوت يكشف عن سبب مهم من أسباب كثرة
أوصاف المباني والقصور والجسور والمصانع والحدائق، وغيرها في
دواوين الشعراء العباسيين في القرن الثالث وما وراءه.

ويُنْفَصِلُ عن هذه القصائد المهمة في التاريخ الفني والاجتماعي جانب
طريف يمكن التقاط أشعاره وأخباره من ثنايا كتب الأدب والشعر والتاريخ
والجغرافية والتراجم والرحلات، وهو كتابة الأشعار على الجدران
والأبواب من الداخل ومن الخارج، وعلى مواضع أخرى بارزة.

وأخبر لسان الدين بن الخطيب أن الأمير النصري أبا الحجاج يوسف^(٦)
أمره بنظم قصيدة يصف فيها الشروع ببناء القصر الكبير في غرناطة، وكان
الأمير قد جلب الرخام، وبرز الناس إلى مشاهدتها تساق على الأعجال^(٧).
قال: وكان بروزاً فخمًا^(٨):

ولما استتم بناء العُلا وأحرز شأو الجلال البعيد

(٦) أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج ولد ٧١٨هـ، وتولى السلطنة سنة ٧٣٣هـ،
وتوفي غيلة سنة ٧٤٥هـ. وقد تدرج لسان الدين بن الخطيب في خدمة الديوان، في
الكتابة، ثم تولى مهمة مساعدة أستاذه الكاتب الوزير ابن الجياب. وفي أيام (يوسف)
بنيت المدرسة الكبرى في غرناطة، وكان حاكمًا بارعًا محبًا للعميران، ومن آثاره قسم
كبير من قصر الحمراء. (نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان: ١١٤، واللمحة البدرية
لابن الخطيب: ٨٤).

(٧) الأعجال: العربات التي تجرها البغال وغيرها.

(٨) الصيب والجهم: ٤٠٠-٤٠١.

وأيقن أن لم يدع غايةً لراج ولا موضعاً للمزيد
 وأنّ الديار جُسوم الجُسوم تولى إقامة قصرٍ مَشِيدِ
 تجير أعظمه مرمراً وجاءوا بكلّ قويٍّ شديد...
 (٢)

وأكثر ما تُكتبُ عليه الأشعار:

- الجدران فإنها صالحة للكتابة وإن طالت الأبيات، قابلة للبقاء ما بقي
 الجدار ماثلاً، ظاهرة للناس كما كان يشتهي ناظمها.

- والجدران تكون جدران القصور من الداخل ومن الخارج، وجدران
 البيوت في الدور، وجدران الفنادق، إن كان هناك مناسبة، وجدران
 السجون للشعراء الذين دخلوها ونظموا الشعر فيها، فقد وجد
 بخط (صُرغتمش) في سجن إسكندرية^(٩):

أبدأ تستردُّ ما تهبُّ الدُّن ... يا، فيا ليت جودها كان بخلا!
 - وقد يكتب الناظم على جذع شجرة، أو غصنٍ وافٍ منها، قال
 المبرد: قرأت على شجرةٍ بشعب بؤان^(١٠):

إذا أشرفَ المحزون من رأسٍ تلعبةً على شعب بؤان استراح من الكربِ
 وألهاءه بطنٌ كالحريرة مسّه ومُطرّدٌ يجري من الباردِ العذبِ
 وطيبٌ ثمارٍ في رياضٍ أريضةٍ على قرب أغصانٍ جناها على قُربِ^(١١)
 فبالله يا ريح الجنوب تحملي إلى أهلِ بغدادِ سلامَ فتى صبّ!

- وقد يكتب الشعر على النسيج،

(٩) الذيل التام على دول الإسلام - للسخاوي - (حوادث ٧٢٥ - ٨٥٠).

(١٠) نقله ياقوت في معجم البلدان (صادر) ١: ٥٠٤.

(١١) من أرضت الأرض: زكت وكثُر عُشْبُها، وحسُن مَرَأها.

- ويكتب على الخشب،

- ويكتب على الرُّخام، وغيره مما يوجد من أنواع الأحجار.

ومن الشعر الذي كُتِبَ على النسيج ما نظمه أبو الحسن الكسّبي البيروتي على ستار روايته التي سماها: حكمة الأفكار، فقد قال^(١٢):

يا أيها القومُ الذين بهم غداً هذا المكانُ مُكَلَّلاً بِبوقارِ
إِنِّي أتيت لكم بحُسنِ روايةٍ أهدت عيونَ الدَّرِّ للأبكارِ
سمّيتها من بعد ما اتَّعظت بها نفسُ الزمان بحكمة الأفكارِ
قد كنتُ قبلاً بالضميرِ حجبتُها فأبْتُ، ولاحت من وراء ستارِ

وكتابة الأشعار على الجدران وغيرها تكون عادةً برغبة صاحب الدار أو القصر أو المحلّة لأغراضٍ مختلفة، فإذا كانت في الأماكن العامة فهي تابعة لظروفها، ويكثر أن تكون تطوّعاً من الناظم لغرضٍ يريده، أو حادثة يسجلها، أو موقفٍ يُثبته.. إلى غير ذلك.

ومن الطريف أن تطلب إدارة مؤسسة رسميّة من أحد الشعراء نظم قصيدة لتُثبّت في قاعة كبرى؛ وذلك تبيّناً لأهميّة المكان والمهمّة التي يؤدّيها، واعتزازاً، فقد اقترحت الحكومة المصريّة على الشاعر نجيب الحداد^(١٣)، نظم أبيات تُرسم على محطة القاهرة الجديدة^(١٤):

يا حُسنِ عصرٍ بعبّاس العُلا ابتسما حتّى الحديدُ غداً ثغراً له وفما^(١٥)

(١٢) ديوان أبي الحسن الكسّبي: ترجمان الأفكار: ١٦٧، وهو شاعر بيروتي من القرن التاسع عشر، له دواوين وكتب أخرى.

(١٣) ديوان: تذكّار الصبا: لنجيب الحداد: ٥٩.

(١٤) تعرف باسم: «محطة مصر»، وهذا هو التعبير الشائع عن: «محطة القاهرة».

وقد نبهني بعض من حكّم هذا البحث على أنّ الحكومة المصرية أجرت مسابقة

لذلك فاز فيها نجيب حداد بهذه الأبيات، وقد ذكرت ذلك مجلة (الزهور).

(١٥) هو الخديوي عباس أحد أفراد أسرة محمد علي باشا.

طرائقٌ في ضواحي القطرِ تبلغنا أقصى البلاد، ولم نُنقلُ بها قَدما
 مصرٌ كصفحة قرطاسٍ بُزبتِها غدا القطرُ عليها الخطُ والقلم^(١٦)
 أرضٌ بها كان خصب النّيلِ منتشراً حتّى أتاها قطار النّارِ فانتظما^(١٧)
 لنا غنى عن قطار السحبِ منسجماً ولا غنى عن قطار النارِ مضطرباً^(١٨)
 يجري بها الرزق في جسم البلاد كما يجري دمٌ في عروق الجسم منتظماً^(١٩)
 محطةٌ هي قلبٌ، والخطوط بدتْ مثل الشرايين فيها والقطار دمًا
 مع السّلامة يا مَنْ سار مُرتحلًا عنّا، وأهلاً وسهلاً بالذي قَدما^(٢٠)

والخبر يوضح انتباه الناس آنذاك إلى أهميّة الشعر وجماليته، ووظيفته الجماليّة، والإداريّة والإعلاميّة.

(٣)

وتُثبت الأشعار على الجدران، وما يشبهها:

- كتابةً بالأقلام المناسبة للموقع، وهي أقلام مختلفة تفنن الخطاطون والنقاشون في استخدامها.
- ونقشاً بالإزميل وما يشبهه من أدوات النقش الملائمة للمنقوش عليه.
- وتجيء نافرة الحروف بارزة، ولكي تبرز يُفرغ ما حولها بصنعة فنية دقيقة.
- وتكون أحياناً مثبتةً إثباتاً في مواضعها، لأنها تُصنع قبلاً موافقةً لمكان وضعها مثل الكتابة بالذهب والفضة وغيرهما.

(١٦) الصورة حسنة، مبتكرة.

(١٧) القطار البخاري.

(١٨) القطار الأولى: المطر. يقول: إن كان النيل يغني عن المطر فلا غنى عن قطار الحديد.

(١٩) التشبيه حسن.

(٢٠) في البيت طرافة، وفيه روح المصريين دعابةً ولطافةً، (والشاعر لبناني نزيل مصر).

ونضرب مثلاً لهذه الفقرة، فقد قال عليُّ بن الجهم^(٢١): «رأيت في صدر قبةٍ مكتوبًا بألوان فصوص منضدة:

لا تُطْمِعِ النَّفْسَ بِالسُّلُوِّ إِذَا أَحْيَيْتَ حَتَّى تُذْيِبَهَا كَمَا
من لم يذق لوعة الصُّدودِ ولم يصبرْ على الذلِّ والشَّقَا أَبَدًا
فذاك مستطرف الفؤاد يرى في كلِّ يوم أحبابه جُدُدا!«
- وقد تُنْقَشُ الأشعار بأسلوب آخر ذكره الوشاء^(٢٢)؛ فقد قال: «قرأتُ

على باب دارٍ خدشًا في الجِصِّ بَعُودِ:
هَلَّا رَحِمْتُمْ مَوْقِفِي بِفَنَائِكُمْ مَتَعَرِّضًا لِنَسِيمِكُمْ أَتَشْتَقُّ
متلدِّدًا أبكي لما قد حلَّ بي مثل الغريق بما يرى يتعلَّقُ»
ونقل ابن عبد ربه في العقد^(٢٣):

«رأيت في جدارٍ من جُدُرِ بيت المقدس بيتين مكتوبين بالذهب:
وَكُلُّ مُقَلٍّ حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مَذْنُبٌ
وكان بنو عمِّي يقولون: مرحبًا فلما رأوني مُقْتَرًا بان «مَرْحَبٌ»
وهذا يحتمل الكتابة بماء الذهب، وتفريغ المکتوب من رقائق الذهب
وتثبيتها.

والشعر المكتوب يكون أحيانًا معروف القائل، ويكون أحيانًا مرسلًا، نسي التاريخ اسم الشاعر لأسباب مختلفة. والشعر المجهول القائل في ما يكتب على الجدران كثير، وأضرب مثلاً من معجم البلدان، فقد أورد ياقوت في معجمه^(٢٤) خبرين متواليين، قال: «وُجِدَ على بعض الأميال بطريق مكة مكتوبًا:

(٢١) الموشى: ٢٧٠. وعلي بن الجهم هو الشاعر العباسي المشهور.

(٢٢) الموشى: ٢٧١.

(٢٣) العقد ٣: ٣٥.

(٢٤) معجم البلدان ١: ٤٦٢.

أيا بغداد يا أسفي عليك متى يُقضى الرجوع لنا إليك؟
 فنحيا^(٢٥) سالمين بكل خيرٍ وينعمُ عيشنا في جانبك
 ووجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوبًا:
 فهل نحو بغداد مزارٌ فيلتقي مشوقٌ ويحظى بالزيارة زائرٌ؟
 إلى الله أشكو لا إلى الناس إنه على كشف ما ألقى من الهم قادرٌ»
 وقد يكون ناظم الشعر المكتوب أو المنقوش هو نفسه صاحب الموقع
 الذي زُين بالشعر، ومن هؤلاء لسان الدين بن الخطيب فقد قال^(٢٦):

وكتبت لينقش على طاقٍ لنا بباب القبّة (وتثبت أختها بباب السين)
 أنا طاقٌ تزهى بي الأيامُ تعبتُ في بدائي الأفهامُ
 وتبدّيت للنواظر محرا ... بأكأنّ الإناء فيّ إمامُ
 واقف للصلاة حتى إذا ما جئت للشرب حان مني السلامُ
 ووصف لسان الدين بن الخطيب قبة اتخذت له مبنية على الماء في
 قطعة قال فيها^(٢٧):

إذا نمتَ نمّ للأمر فوق سريرٍ وإن قمتَ قُم في غبطة وسرورٍ
 ودونك فاستغرب على الماء موقفي كما وقف ابن الماء وسط غدير!

(٤)

ولما مال الشعراء، بنظرٍ منهم، أو برغبة من صاحب البناء ومشيدته إلى
 تسجيل المعلومات المختلفة شعراً، ضمنوا القطع (أو القصائد) التي
 نظموها ما يريدون إثباته من الثناء والإشادة والدعاء وما شابه ذلك، ثم

(٢٥) في المطبوع: «منعنا»، ولم أجد لها معنىً مناسباً، واقترحت مؤقتاً: فنحيا.

(٢٦) الصيب والجهام والماضي والكهام: ٥٨٤.

(٢٧) الصيب والجهام (ديوان لسان الدين): ٥٤٦.

أضافوا التاريخ شعراً بحساب الجُمَّل.

وكثرَ هذا مع عصر المماليك، واستمر بعدهم إلى العصر الحديث. ومعروف أن حساب الجُمَّل باختصار: «نوع من الحساب يُجَعَلُ فيه لكلِّ حرف من الحروف الأبجدية عدد (رقم) من الواحد إلى الألف على ترتيب خاص، وهو: «أبجد هوّز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ»^(٢٨). فالألف واحد والباء اثنان والجيم ثلاثة...، والياء عشرة، والقاف مئة، والغين ألف؛ أي: يستمر العدد من واحد إلى عشرة، ثم من عشرين إلى مئة، ثم من مئة إلى ألف.

وصار التأريخ بالشعر ظاهرة تشمل ما يكتب على المباني والمساجد والدُّور والقصور والقناطر والقيساريّات والقباب والزوايا والرّبط والغرف داخل القصور، على وجوه شتى من النقش والكتابة والتلوين، وانتقل إلى شواهد الشواهد، فأرّخوا الوفيات بالشعر.

والحُرُوف التي يُعتدُّ بها من القطعة هي من العبارة أو العبارات التي تتلو كلمة (أرّخ) وما شابهها من كلمات. وأضربُ لهذا مثلاً، فقد قال أبو الحسن الكسّبي لَمَّا تجددَ مَسْجِدُ «المجذوب» في بيروت: قلت مؤرّخاً عن لسان حاله^(٢٩):

إِنَّ مَنْ سَعَى لِتَجْدِيدِ وَضْعِي وَبِهِ يَرْتَجِي عُمُومَ الثَّوَابِ

بَشَّرُوهُ عَنِّي بِخَيْرٍ جَزِيلٍ جَاءَ تَارِيخُهُ: «بِغَيْرِ حِسَابٍ»

- والتاريخ هو: ١٢٨٣هـ.

ومن أشعار التأريخ في جامع الدرويشية (بدمشق) ما كتب (أو نقش)

(٢٨) المعجم الوسيط (ج م ل).

(٢٩) مرآة الغريبة: ١٨.

على بركة ماء في حائطه الشمالي، في صدرها^(٣٠):

هذا سبيلٌ بل سلسيلٌ يُخيي عليلاً يشفي غليلاً
وزمزم الماء منه يجري عند مقام حوى خليلاً
أجراه أجراً فأرَّخوه: «درويش باشا بنى سيلاً»

- والتاريخ هو: سبع وثمانون وتسع مئة هجرية.

ولا يخلو هذا الموضوع من طرائف تروى.

(٥)

وقد يثير نصّ جداريِّ سجلاً بين شاعرين لم يلتقيا، وإنما حرّك السّجال ما كتبه الأول وتأثر به الثاني، أو استثاره؛ ومن ذلك ما نقله لسان الدين بن الخطيب، قال^(٣١):

«في بعض أيام الفتنة تهدمت قصور بمراكش، ومرّ أبو الحسن علي بن لبّ بن محمد بن سعيد العنسي الأندلسي^(٣٢) ببعض القصور الخربة، فوجد مكتوباً بالفحم على بعض جدرانها المتهدمة:

ولقد مررتُ على رسوم ديارهم فبكيّتها والرُّع قاعٌ صفصفُ
وذكرتُ مجرى الحور في عَرَصاتهم فعلمت أن الدهر منهم منصفُ!

فتناول أبو الحسن بياضاً من بقية جيّار، وكتب تحت ذلك الشعر:

لهفي عليهم بعدهم فمثالهم بالله قل لي في الروى هل يُخلفُ؟
من ذا يجيب منادياً بوسيلة أم من يجير من الزمان ويعطفُ؟
إن جارَ فيهم واحد من جملة كم كان فيهم من كريمٍ ينصفُ!

(٣٠) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: ٣٧٧.

(٣١) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤: ٧٣.

(٣٢) توفي: ٦٢٧هـ.

- وفي نوح الطيب خبر طريف قال فيه:

«خرج ثلاثة أدباء للنزهة^(٣٣) خارج مُرسية^(٣٤)، وصلّوا خلف إمامٍ
بمسجد قرية، فأخطأ في قراءته، وسَهَا في صلاته! فلما خرج أحدهم كتب
على حائط المسجد:

يا خَجَلتِي لِصِلاةٍ صليْتُها خَلَفَ خَلْفٍ^(٣٥)
فلَمّا خَرَجَ الثّاني كَتَبَ تَحْتَهُ:
أَغْضُ مِنْها حَياءً مِنْ المُهَيِّمِنِ طَرْفي
فلَمّا خَرَجَ الثّالثُ كَتَبَ تَحْتَهُ:
فليسَ تُقْبَلُ مَنّا لو أنّها أَلْفُ أَلْفٍ!

وقد تجيء نصوص الأشعار التي تُثبت على الجدران وما شابهها وليدة
ظروف خاصة، هي وقائع تمت لأصحابها، وتبدو لنا أحياناً كأنها وليدة
المصادفات.

وفي مادة (أزتخشميشن) في معجم ياقوت^(٣٦) خبر طريف جرى
لياقوت هناك. فقد وصل إلى هذه المدينة بعد شدائد لقيها من شدة البرد
وجمود الماء في نهر جيحون الذي كان يركب سفينة فيه، قال: «وقد أيقنت
أنا ومن في صحبتي بالعطب، إلى أن فرّج الله علينا بالصعود إلى البرّ (سنة
٦١٦هـ)، فكان من البرد والثلوج في البرّ ما لا يبلغ القول إلى وصف
حقيقته، وعدم الظُّهر الذي يُركب، فوصلتُ إلى هذه المدينة بعد شدائد،
فكتبت على حائط خانٍ سكنته إلى أن تيسّر المضيّ إلى الجُرْجانية:

(٣٣) نوح الطيب ٤: ١٨.

(٣٤) مُرسية: من مدن شرقي الأندلس.

(٣٥) الخَلْف: الولد الطالح، الرديء.

(٣٦) معجم البلدان ١: ١٤٢.

ذمنا رخشميشن إذ حَللنا بساحتها لشدة ما لقينا^(٣٧)
 أتيناها ونحن ذوو يسارٍ فعدنا للشقاوة مُفلسينا
 فكم بزُدًا لقيتُ بلا سلامٍ وكم ذُلًا وخسرانًا مُبيننا
 وثلجًا تقطر العينان منه وحلًا يُعجزُ الفيل المتينا
 وكالأنعام أهلاً في كلامٍ وفي سمّتٍ، وأفعالاً ودينا
 إذا خاطبتهم قالوا «بغسًا» وكم من غصّةٍ قد جرّعوننا^(٣٨)
 فأخرجنا أيا ربّاه منها فإن عُدنا فإننا ظالمونا
 وليس الشأن في هذا ولكن عجيبٌ أن نجونا سالمينا
 ولسْتُ بيائسٍ والله أرجو بُعيد العُسر من يُسرٍ يلينا^(٣٩)

- وأثبت لسان الدين بن الخطيب في ديوانه^(٤٠) قصيدة من عشرة أبيات قال في مقدمتها: «قلت وقد حللت في بعض التوجهات بمدينة سبتة، وكتبتها في حائط القصر:

يا سبتة العزفيين الألى درجوا وقد تضحّوا من أخبارهم أرج^(٤١)

(٣٧) تبه ياقوت إلى أنه اختصر اسم المدينة ليوافق كلامه وزن الشعر.

(٣٨) كذا فيه «بغسًا» لفظة يقولونها في كلامهم، وقابلها لفظًا وصوتًا بكلمة غصّة.

(٣٩) قال ياقوت بعد الشعر «قال هذه الأبيات وسطرها على ركاكتها وغيثاتها لأن الخاطر لصدئه لم يسمح بغيرها... وقد لاقى (ناظمها) العبر في وعثاء السفر يخفي نفسه عفافًا ويسأل الناس كفافًا، وكتب في شوال سنة ٦١٦هـ. وإلا «فالبلد وأهله بالمدح أولى وبالتقريب أحقّ وأحرى».

- قلت في أصل ياقوت: «لأن الخاطر لصداه.. ولينال الناس كفافًا» وقرأتها كما سبق أن أثبتت.

(٤٠) الصيب والجهم والماضي والكهام: ٣٥٥.

(٤١) سبتة: مدينة مغربية مطلة على البحر، وعلى القسم الجنوبي من جزيرة الأندلس، والعزفيون (أو بنو العزفي) أسرة كان لهم حكم وتاريخ في المدينة.

ومن جميع الأنبياء نرْجُو هباتِ سُحْبِهِ
غَوْثُ الْوَرَى فِي مَوْقِفِ الْ حَسَابِ مُجْلِي كَرِبِهِ (٤٣)
فَلذَّبَهُ وَلَا تَحْدُ عَنْهُ وَلَا عَنْ طَلِبِهِ
فَإِنَّ مَنْ لَا ذَبَّهُ نَالَ جَمِيعَ أَرْبِهِ
وَاشْرَبَ زَلالًا سائِغًا صَيِغَتِ لآلِي حَبِيهِ
وَاسْتَشْفَى فِيهِ فَالْشَفَا مَمَّنْ جَزَى بِسَبِيهِ
وَدُونَكَ التَّارِيخُ فِي بَيْتِ عَلا فِي أَدْبِهِ
صَلَى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا قَدْ طَابَ وَرَدُ مَشْرَبِهِ

والنص - في ما اطلعتُ عليه من نصوص السُّبُل في دمشق وغيرها - فريدٌ فيما صنع واقفو تلك السبل؛ فقد بناه واقفه وأجرى ماءه «عن روح رسول الله ﷺ». والنص من الفترة العثمانية، مجهول الناظم، مؤرخ بسنة ١٢١٦هـ.

وقد جمع الشاعر الناظم في قصيدته (القصيرة) بين:

- وصف السبيل الذي أتقن المعماري صنعه، وزخرفته.
- ووقفه للناس بحبه لرسول الله ﷺ.
- والاسترسال إلى مدح رسول الله، وتكريمه وذكر شيء من خصاله، وفضائله.
- ودعوة مرتاد السبيل، والمارِّ به إلى اتباع سُنَّة رسول الله ﷺ.
- وإباحة الاستفادة من ماء السبيل: على الوجوه المختلفة التي يحتاج قاصد السبيل إليها.
- ثم زاد فنبّه الواردَ على السبيل على الاستشفاء بماء السبيل؛ لأنه مكرَّم بإنشائه عن روح النبي الكريم.

وفي الأشعار المنقوشة على الجدران قصائد وقطع وأبيات نظمها كبار شعراء غرناطة في القرن الثامن الهجري فيهم: لسان الدين بن الخطيب، وابن زُمرَك.

لقد تزيّنت قاعات، وأقواس، ونوافذ، ومدخل أبواب، ومصانع مختلفة داخل قصر الحمراء وخارجه؛ وهي نقوش بعضها نافر وبعضها غائر، وقد جاءت تنمة مكملة لروعة البناء الذي اجتمع فيه الفن المعماري الأندلسي وسائر الفنون والعلوم، وخاصة نظام المياه الواردة إليه باردة (من الينابيع) وحارة من الحمّات، وبعضها أدنى مستوى من أرضية قصر الحمراء. لقد كان البنيان بكل ما فيه من هندسات مختلفة من عطاء عبقرية أهل الأندلس وتفوّقهم الحضاري.

ونقف عند فناء الأسود (أو باحة الأسود)^(٤٤)، وهو يُعدّ بطرازه المصقول، وقبابه المضلّعة، وأعمدته الرشيقة، وزخارفه البديعة، ونافورته الفريدة التي تحملها الأسود أروعَ أجنحة الحمراء، وأوفرها رُواءً وسحرًا، وهو فناء مستطيل مكشوف، طوله خمسة وثلاثون مترًا وعرضه عشرون، تحيط به من الجوانب الأربعة مشرفيات أو أروقة ذات عقود تحملها مئة وأربعة وعشرون عمودًا من الرخام الأبيض، صغيرة الحجم، متناهية في الجمال والرشاقة، وعليها أربع قباب مضلّعة، تقع كلّ واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل: اثنتان منها تتقابلان شرقًا وغربًا؛ والأخريان تتقابلان شمالًا وجنوبًا. وهي متماثلة الصنع والزخرف كأنّها رواشنُ. ويحمل كل واحدةٍ منها عدد متماثل من الأعمدة. وفي وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة... وفي فناء الأسود طائفة من النقوش التي كتبت بخط النسخ أو الكوفي الجميل على الجدران والأعمدة..

(٤٤) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال: محمد عبد الله عنان: ١٩٩ وما بعدها.

وُنقِشت عبارات تبين عمل السلطان الغني بالله في قصر الحمراء،
وُنقِشت كثيرًا عبارة «ولا غالب إلا الله»، وكانت شعار دولة غرناطة. وُنقِشت
أدعية كثيرة.

وُنقِشت قصيدة رائعة فوق دائرة صحن النوفرة التي تحملها الأسود
تضم اثني عشر بيتًا، من نظم الوزير الكاتب ابن زمرَك^(٤٥)، وهي أبيات
وردت في قصيدته في وصف (الحمراء) قال:

تبارك من أعطى الإمام محمدًا	مغاني زانت بالجمال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدائع	أبى الله أن يلقي لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها	تحلى بمرفض الجمال التواغيا
يذوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
ألم تر أن الماء يجري بصفحها	ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه	وغص بذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة	تفيض إلى الآساد منها السواقيا؟
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدث	تفيض إلى أسد الجهاد الأيديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض	عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لاعن كلاله	تراث جلال يستخف الرواسيا ^(٤٦)
عليك سلام الله فاسلم مخلدًا	تجدد أعيادًا وتبلي أعاديا!

وقد يجعل الشاعر الأبيات على لسان القصر نفسه أو قاعة من قاعاته كالذي

نجده في جانب العقد الأيمن من بهو السفراء، وفي هذه الأبيات^(٤٧):

(٤٥) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرَك (توفي ٧٩٥هـ).

(٤٦) قال فيه: وارث الأنصار؛ لأن الممدوح الغني بالله، هو من نسل الصحابي سعد بن عبادة الأنصاري.

(٤٧) الآثار الباقية: ١٩٠-١٩١.

فقتُ الحسانِ بحليتي وبتاجي وهوت إليّ الشهب في الأبراج
يبدو إناء الماء فيّ كعابدٍ في قبلة المحرابِ قام يُناجي
ضمنت على مر الزمان مكارمي ريّ الأوامِ وحاجة المحتاجِ
فكأنني استقرت آثار الندى من كفّ مولانا أبي الحجّاجِ
لا زال بدرًا في سمائي لائحًا ما لاح بدر في الظلام الدّاجي!

(٧)

هذه النصوص الشعرية التي تثبت على الجدران، وعلى كل شيء يمكن إثبات الكتابة عليه هي نتاج مشترك المقاصد: هي تحليةٌ وتسجيلٌ ومشاركة من الشعراء في عادة اجتماعية طريفة.

- في بعض هذه النصوص إثبات حال، وتسجيل موقف فيه خصوصية تامة، لكن الناظم الشاعر أراد أن يعرض ما خطر له على كل مجتاز بمكان الكتابة. ومن ذلك ما أخبر به لسان الدين بن الخطيب عن نفسه، أنه لما اجتاز على مدينة (سبتة) كتب في بعض الحيطان^(٤٨):

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا كذلك الدهر حالٌ بعد حالٍ
وكلّ بدايةٍ فإلى انتهاءٍ وكلّ إقامةٍ فإلى ارتحالٍ
ومن سام الزمان بقاء أمرٍ فقد وقف الرجاء على المُحالِ!
وفي الشعر عبرة من عبر الحياة، ولفتة إنسانية أوردتها على الخاطر:
الحلّ والارتحال.

- وفي أغراض كتابة الشعر على الجدران التأريخ، ومنه التأريخ

(٤٨) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤: ٥٢٥.

- قلت الأصل في البيت الأول: «كذلك الدهر» وفي الثالث: «بعام أمر» وقد صوّبته كما ترى.

- بحساب الجُمَّل، وينطوي الشعر أحياناً على اسم صاحب العلاقة.
- وفي هذه النصوص الشعرية المنقوشة على الجدران ما يثبت حالاً تاريخية كبيرة، ومشاركة للشعر في جماليات المبنى المشيد. وأروع ما قرأتُ في هذا الباب ما نظمه شعراء الأندلس من عصر غرناطة على معالمهم الحضارية، وخصوصاً ما نقش من الشعر في قصر الحمراء: أبهائه وغرفه وأطراف أبوابه ونوافذه وأعمدته.. إلخ. وترى الآن تلك الأشعار ماثلةً مع بقايا القصر العظيم دالةً على جوانب من الحضارة... وفيها هذا الشعر الخالد.
- ويختلط في بعض ما نُقش على جوانب كثيرة من (الحمراء): وصف المشهد ومدح الباني، ومن ذلك هذه القطعة^(٤٩)، وفيها مدح للغني بالله:
- فيا ابن العلا والحلم والبأس والندى ومن فاق آثار النجوم إذا انتمى
طلعت بأفق الملك للناس رحمةً لتجلو ما قد كان بالظلم أظلماً
فإن رعشت زهر النوم فخيفةً وإن مال غصن البان شكرك يمما
- وقد يكون المكتوب من الشعر على الجدران وصفاً شخصياً لحال الناظم وتسجيلاً لظرفٍ طارئٍ وقع له، وفي خبرٍ أنه وجد على حائطٍ محبس ابن العميد بعد قتله هذان البيتان^(٥٠):
- ملك شد لي عُرا الميثاق بأمانٍ قد سار في الآفاق
لم يحل رأيه ولكنّ دهري حال عن رأيه فشدّ وثاقي!
- وكتابة الأشعار على الجدران في البيوت والدور والمعاهد والمباني العامة وغير ذلك تفيد الزخرفة والتزيين. وكان النقاشون

(٤٩) الآثار الأندلسية الباقية: ١٩٤.

(٥٠) الوافي بالوفيات ٢٤: ٤٢٦.

والخطاطون يتفننون في كتابة تلك الأشعار بأنواع مناسبة من أشكال الخط العربي.

وهذه النصوص المكتوبة على الجدران، وما شابهها هي نصوص أدبية: تجيء مختصرة محدودة الأبيات، وهذا كثير، وتجيء متأنية مطولة بين قطعة وقصيدة.

وهي تابعة للإبداع الأدبي: فيها خصائص المقطوعات من الأشعار، وفيها أيضاً خصائص القصائد. ويغلب على هذه النصوص: السهولة، والوضوح، والتوثيقية، والإحساس بملامح الجمال.

ويضاف إلى مهمة التزيين والزخرفة في هذه الأشعار: التأريخ والإشادة بالباني، والمدح حين يقتضي الأمر ذلك.

وحين يطول النص يصبح كنصوص الأشعار الأخرى في ديوان الشاعر (تخرج عن كونها من شعر المناسبات) كالذي قرأناه في قصيدة نجيب الحداد وقصيدة ابن زمرّك.

هذه الأشعار نصوصٌ أدبيةٌ كثيرةٌ اخترقت الزّمان، وثبتت على الجدران ثباتها في كتب الأدب والتاريخ والآثار وغيرها، وهي تلوين أدبيّ فنيّ له خصائصه، مثلما ثبتت له أحواله الدّاعية إلى إبداعه وظروفه.

* * *

المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين بن الخطيب - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الأولى.
- الآثار الأندلسية الباقية - محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الأولى.
- تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م.
- تذكارات الصبا - نجيب الحداد - بيروت الطبعة الأولى.
- التذييل العام على دول الإسلام للسخاوي - (حوادث ٧٤٥-٧٥٠هـ).
- ترجمان الأفكار - لأبي الحسن الكستي البيروتي - (ديوان شعر) - بيروت - الطبعة الأولى.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ابن بسام الشنتريني - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - الطبعة الأولى.
- السبل في مدينة دمشق - تأليف: أحمد فرزة طرقيجي ومطر خشان - الناشر: الجمعية التعاونية للطباعة - دمشق - ٢٠٠٥م.
- الصيب والجهم والماضي والكهام - لسان الدين بن الخطيب - الجزائر - الطبعة الأولى.
- عيون الأخبار - ابن قتيبة - دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى.

- العقد الفريد - ابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى.
- اللمحة البدرية في الدولة النصرية - لسان الدين بن الخطيب - المطبعة السلفية - القاهرة - الطبعة الأولى.
- الموشى - الوشاء: أبو الطيب محمد بن أحمد - تحقيق مصطفى كمال - القاهرة ١٣٢٤ هـ - الطبعة الثانية.
- معجم البلدان - ياقوت الحموي - دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٩٥ م.
- المحاسن والأضداد - الجاحظ - مكتبة الخانجي - القاهرة.
- مرآة الغريبة - (ديوان شعر) - لأبي الحسن الكستي البيروتي - بيروت - الطبعة الأولى.
- منادمة الأطلال ومسائرة الخيال - عبد القادر بدران - المكتب الإسلامي - دمشق - الطبعة الثانية.
- نفع الطيب - المقري - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى.
- نهاية الأندلس - محمد عبد الله عنان - القاهرة - الخانجي - الطبعة الأولى.
- الوافي بالوفيات - الصفدي - نشر لجنة المستشرقين الألمانية - (النشريات الإسلامية) - جزء ٢٤
- يوميات شامية - (الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومئة) - محمد بن كمال الصالحى - تحقيق أكرم العلي - دار الطباع - دمشق - الطبعة الأولى.

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - الثعالبي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة - الطبعة الأولى.

* * *